أهمية المواقع الأثرية الغارقة وعلاقتها بعصور ما قبل التأريخ في العالم*

تأليف: أ. د. جف بايلي
ترجمة: عبدالله بن محمد الشارخ

ملخص: تتناول هذه الورقة الشكوك التي سادت في المجتمع الآثاري عموماً حول قيمة مواقع ما قبل التأريخ الغارقة، وكذلك الحاجة لتناول الإشكالات الفكرية، التي تُبرز أهمية القيام بأبحاث لمواقع أثرية تحت الماء. تقوم تلك الشكوك على أربعة مفاهيم خاطئة، وهي:

١- أن البقايا الأثرية تحت الماء قد تحللت، أو أن استخراجها صعب وتترتب عليه تكاليف مادية عالية.

٢- في جميع الأحوال، فإن هذه البقايا الأثرية ليس متوقعاً أن تزودنا بمعلومات لا يمكن الحصول عليها من المواقع المكتشفة على اليابسة.

٣- أن الاستيطان الساحلي والاقتصاديات القديمة، التي تعتمد على الموارد الغذائية البحرية تعد هامشية بالنسبة لعصور ما قبل التأريخ في العالم، وهذا اعتقاد عززته مشاهدات اثنوغرافيي القرن التاسع عشر الميلادي حول المجتمعات الساحلية.

٤- أن البحث عن الحضارات الغارقة من قبل الباحثين الهواة، دليل على هامشية هذا النوع من الدراسات.

إنني في هذا البحث، أؤكد أن البيئات الساحلية كانت دوماً مفضلة لدى الجماعات البشرية في عصور ما قبل التأريخ، وكان لها دور رئيس، وليس هامشياً، في تقدم المجتمعات البشرية؛ وأن دراسة الآثار المغمورة بالماء ليست أقل صعوبة أو أكثر عرضة لإشكالات التباين في وضوح البقايا الأثرية أو فقدانها أو تدميرها، عن مثيلاتها على اليابسة؛ وأن دراسة البقايا الأثرية الغارقة، بالمقابل، تُعد ضرورة وليست ترفاً إن كنا مهتمين فعلاً بالفهم الصحيح للتطورات المهمة في عصور ما قبل التأريخ بالعالم.

المقدمة

إن مجتمع الأفراد والمعاهد البحثية المهتمة بالظواهر الجيولوجية والآثارية المغمورة بالماء في قاع البحر في وقتنا الحاضر، يمثلون مجموعة كبيرة تضم أشخاصاً ذوي اختصاصات متعددة، وجنسيات مختلفة، وجمعيات ذات اهتمامات متنوعة. وبالمقابل، فإنه من المهم لنا كآثاريين أن نعرف بأننا جزء من مجتمع آثاري كبير غير مقتنع بأهمية استكشاف المواقع الأثرية الغارقة التي تعود لعصور ما قبل التأريخ، بل ويميلُ لاعتبارها سمة لهواة الغطس، أو مهمة باهظة التكاليف، ولا يتوقع لها مردوداً على الإطلاق.

إن لهذا المناخ من الشك تاريخ طويل ومتباين، ولعله من المفيد أن نتعرف على هذا التاريخ كي يتسنى لنا استعراض تحفظاتنا حول هؤلاء المتشككين.

العدد السادس عشر رجب ١٤٢٨هـ - يوليو (تموز) ٢٠٠٧م
(ص ص ٦١-٧٤) ردمد ٨٩٤٧-١٣١٩

من المهم أن نضع اهتمامنا بمنطقة بحر الشمال وبحر البلطيق في إطار دولي، بل وعالمي أكبر، حيث يمكننا من خلال هذا المنظور الأكبر طرح الأسئلة الكبرى حول التغير الحضاري والتقدم البشري، اللذين يعدان ذوي أهمية عظمى لدى الآثاريين.

ومن المفيد التمييز بين نوعين من المعلومات الآثارية، التي يمكن الحصول عليها من الاستكشاف في المناطق المغمورة بالماء، علماً بأن مثل هذا التقسيم ليس تقسيماً قطعياً. فالنوع الأول يتمثل في المعلومات المتوقعة حول المناطق المغمورة بالماء، وما يرتبط بها من بقايا أثرية. وفعلياً، فإننا نتحدث هنا عن مدّ إهتمام الدراسات الآثارية على اليابسة لتشمل دراسة نمط العيش لجماعات ما قبل التأريخ، في مناطق أصبحت مغمورة بالماء في وقتنا الحاضر.

وأما النوع الثاني من المعلومات فيرتبط باستخدام الإنسان في الماضي للمناطق الساحلية والعلاقة التاريخية طويلة المدى للاستفادة من الموارد البحرية...، والذي يمكن أن نعده التاريخ طويل المدى لبيئة الإنسان البحرية (seascape).

وقد جرى تناول النوع الأول بطرق عدة، خاصة المناقشة الخاصة بمنطقة بحر الشمال للباحث برايوني كولز (Bryony Coles) في عام ١٩٩٨م. فمن الواضح لكثير من المشتغلين بدراسات آثار العصر الحجري القديم على اليابسة في مناطق أخرى، أن مشاهداتنا الميدانية لا تمثل سوى صورة مقتضبة من الصورة الكاملة، وأن نتائج دراساتنا تشير باستمرار إلى الجزء المغمور بالماء حالياً من بيئة العصر الرباعي، كجزء مفقود من تصوراتنا الإقليمية لما كانت عليه الأمور في السابق (بايلي ١٩٩٧م).

إنني أعدها من المسلمات أن يكون تحليل التغيرات الجغرافية القديمة المتغيرة لمساحات اليابسة الكبيرة، والبيئات الأرضية المرتبطة بتغير مستوى سطح البحر، أمر أساسي في فهمنا للمتغيرات البيئية والحضارية للعصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط.

وعلى كلٍّ فإني أود التركيز هنا على النوع الثاني من المعلومات، لاعتقادي أن أهمية المناطق الساحلية قد تم التقليل من شأنها بدرجة كبيرة في النظرة التقليدية لتطور الجماعات البشرية، خاصة وأن الأبحاث في المناطق المغمورة بالماء لها دور كبير في هذا الموضوع.

ولهذا السبب، سأختبر، بشكل موجز، موضوعين فقط، الأول، التحقق من الأسباب الكامنة وراء تقليل أهمية المناطق الساحلية والاستفادة من الموارد البحرية في الدراسات الآثارية التقليدية لعصور ما قبل التأريخ في العالم.

والثاني، رغبتي في الدفاع عن أهمية دراسة المناطق الساحلية، وأنها تستحق اهتماماً أكبر مما لقيته حتى وقتنا الحاضر.

لماذا هُمشت سواحل عصور ما قبل التأريخ؟

١- غياب الأدلة نتيجة تغير مستوي سطح البحر.

إن مما لا شك فيه أن أحد الأسباب الأساسية تتمثل في الندرة الملحوظة للمواقع الأثرية الساحلية، أو الأدلة المرتبطة بالنشاطات البحرية قبيل فترة ما بعد العصر الجليدي (Postglacial period). فمن المنظور الأوروبي، فإن المواقع الأثرية الساحلية، مثل أكوام الأصداف أو صيد الحيوانات البحرية، تكون عادة مرتبطة بالعصر الحجري الوسيط (Mesolithic)، وحتى في هذا العصر فإنها موجودة بكثافة ملحوظة منذ ٦٠٠٠ عام قبل الآن وما بعدها، وهناك أنماط أخري مشابهة في العالم. إن أكوام الأصداف، والتي عادة ما تكون ذات حجم هائل، كما في أكوام الأصداف بموقع «ارتبول» (Ertebølle) بجنوب اسكندنافيا، فإنها تصل إلى عشرات الآلاف على امتداد سواحل العالم بعد حوالي ٦٠٠٠ سنة مضت، وتكون نادرة الوجود قبل ذلك التاريخ.

وتوجد أحياناً مواقع، أو مجموعات من المواقع، التي تحتوي دلالات بحرية هائلة، إلا أنهما تكون محدودة عند مقارنتها بمثيلاتها في فترات لاحقة، تعود في تاريخها إلى ما بين ١٢,٠٠٠-٦,٠٠٠ آلاف سنة مضت، وخاصة في الكهوف الساحلية بشمال أسبانيا، وحوض البحر المتوسط وجنوب أفريقيا، وعلى ساحل كاليفورنيا في مواقع كهفية

وأخرى سهلية (Erlandson 2001)، وفي كومة ناتسوشيما (Natsushima) الصدفية على خور طوكيو باليابان (Sughihar and Seri 1957).

وأما قبل ١٢,٠٠٠ سنة، فلا يوجد غالباً أي أثر سوى بعض أصداف limpet التي تعود للعصر الحجري القديم الأعلى في بعض الكهوف الأوروبية الساحلية، حتى نصل للفترة السابقة، التي تميزت بارتفاع مستوى مياه البحر والتي ترتبط بفترة ما بين آخر عصرين جليدين (شكل ١,١).

ومقارنة بالتاريخ الطويل لتقدم الجماعات البشرية على مدى مليون سنة ماضية، وحتى خلال ١٠٠,٠٠٠ ألف سنة مضت، يُعد عمر ٦٠٠٠ سنة مضت حديثاً جداً، حتى بالمقارنة مع معرفة الإنسان لاقتصاديات الزراعة، والتي يمكن تأريخها إلى حوالي ١٠,٠٠٠ سنة بكل ثقة، وربما تعود جذورها لفترات أكثر قدماً.

لقد وضعت رؤى عميقة لتفسير التطورات الأخيرة المرتبطة بالاهتمام بالموارد البحرية، والتي تركز عامة، افتراضياً، على الكلفة العالية لليد العاملة، أو الصعوبات التقنية كمعوقات لاستغلالها، حتى تسببت التطورات التقنية وزيادة أعداد السكان وتناقص أعداد النباتات والحيوانات على اليابسة في دفع الجماعات البشرية للبحث عن مصادر أخرى للغذاء (مثال osborn 1977).

وعلى كلٍّ، فإن هناك تفسير أبسط وأكثر قبولاً لمثل هذه المتغيرات الزمنية. إن تاريخ ٦٠٠٠ سنة مضت يتوافق لدرجة كبيرة مع ارتفاع مستوى ماء البحر اللاحق للعصر الجليدي، الذي يرتبط بدوره بذوبان الألواح الجليدية القارية حتى وصل لوضعه الراهن. ومن خلال هذا الطرح، يتضح أن ظهور المواقع الأثرية الساحلية بأعداد كبيرة في أنحاء العالم بعد ذلك الوقت، يعكس وضوح هذه المواقع وحالة الحفظ للدلائل الأثرية.

كان مستوى سطح البحر قبل ٦٠٠٠ سنة مضت أكثر انخفاضاً، وكانت السواحل إلى داخل البحر. إنَّ معظم

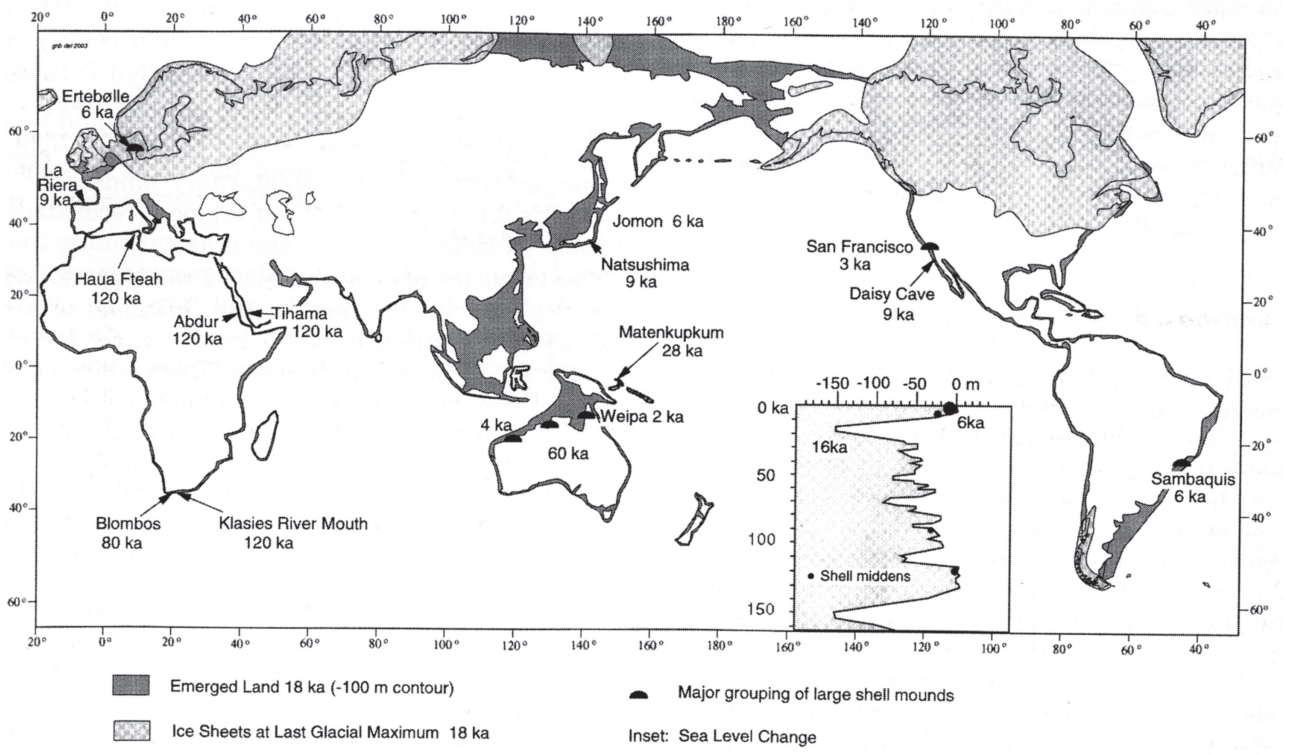

الشكل ١، ١: خريطة العالم ويظهر فيها امتداد الحد القاري الظاهر خلال التراجع الأقصى لمياه البحر. والمواقع الواردة في نص البحث، ونمط تغير مستوى سطح البحر، وعلاقته بانتشار الأكوام الصدفية خلال الدورة الجليدية – بين الجليدية.

الدلائل على استخدام الجماعات البشرية لهذه السواحل، إما مغمورة بالماء أو دمرت.

إن المواقع الأثرية نادرة الوجود، التي تعود للفترة ما بين ١٢,٠٠٠-٦,٠٠٠ سنة قبل الوقت الحاضر، توجد عادة على السّواحل شديدة الانحدار أو في أماكن تتمتع بدرجة حفظ عالية، كالكهوف مثلاً، حيث تكون السواحل في المراحل الأخيرة من ارتفاع مستوى سطح الماء مقاربة لحد الساحل في وقتنا الحاضر، أو على سواحل قد مرت منذ ذلك الحين بحركات رفع تكتونية أو معرضة للضغط.

إن الزيادة الملحوظة في الأصداف البحرية في رواسب نهاية العصر الجليدي وما بعد الجليدي في طبقات الكهوف الساحلية، يمكن ربطها بالارتفاع في مستوى سطح البحر والضيق التدريجي بين ساحل البحر وموقع الكهف، على افتراض أنه عندما كان ساحل البحر بعيداً كانت القواقع (molluscs) والأطعمة البحرية الأخرى يتم جمعها وتحضيرها قرب مكان الساحل آنذاك، والتي تعد الآن مواقع مغمورة بالماء (Bailey & Craighead 2003).

وقد وجدت البقايا الأثرية، التي تحتوي على أعداد كبيرة من الأصداف البحرية مرتبطة بارتفاع مستوى سطح البحر في فترة ما بين العصرين الجليدين الأخيرة في مواقع متعددة بأفريقيا وحوض البحر الأحمر، والتي بدورها تعزز العلاقة بين تغير مستوى سطح البحر ودرجة وضوح الأدلة الأثرية وحفظها.

وعلى الرغم من الزيادة في حجم الأدلة غير المباشرة حول العلاقة المحتملة بين المناطق الساحلية والجماعات البشرية، التي تعتمد اقتصادياً على الموارد الغذائية البحرية، فإنه لا يزال هناك نقص في الأدلة العلمية الملموسة.

إن مما قد يشير إليه المشككون هو أن المواقع الأثرية المغمورة بالماء، والتي تم تنقيبها واكتشافها حتى الآن، على سبيل المثال، في بحر البلطيق (fischer 1995b)، أو شرق البحر المتوسط (مثل Galili et al 1988)، تعود إلى فترة زمنية حديثة نسبياً، وأن ما تقدمه من معلومات يمكننا الحصول عليها من مواقع تعود للفترة نفسها على اليابسة.

إن القول باحتمال وجود دلائل، لكنها دمرت أو دفنت يختلف تماماً عن إثبات أن هذه الدلائل يمكن إثبات وجودها. كما أنه من السهل الانتقال من فكرة أن الأدلة ربما كانت موجودة ولكن لا يمكن العثور عليها، إلى الاقتناع بأن الأدلة لم تكن موجودة في المقام الأول.

إنّ وجهات النظر حول فترة ما قبل التأريخ في العالم من خلال الدراسات الأثرية على اليابسة، تعد من العوامل الأساسية المؤثرة في التقليل من أهمية السواحل. وتتمثل في المنظور الشائع في الكتب الدراسية المقررة لفترة ما قبل التأريخ في العالم القديم، والمتمثلة في أن تقدم الجماعات البشرية كان أساسه على اليابسة، بدءاً من جمع الغذاء والتغذي على «الجيف» إلى صيد الحيوانات الكبيرة، ثم تلا ذلك معرفة الزراعة واستئناس الحيوان، والزيادة المضطردة في أعداد السكان، نتيجة الوفرة الملحوظة في المحاصيل الزراعية. إن هذا المنظور حصل على شعبيته من غياب الأدلة الساحلية المبكرة، كما سبق ذكره، ولكنه يعزز انطباعاً سلبياً نحو استيطان المناطق الساحلية على أنها نمط معيشي يعتقد أنه يعود إلي فترة زمنية متأخرة، ومحدود في انتشاره الجغرافي، وربما كان مختلفاً عن النسق العام.

ومن منظور الدراسات الأثرية على اليابسة، فإن المناطق الساحلية يُنظر لها فعلياً على أنها تقع على هامش كتل اليابسة القارية، بدلاً من كونها مراكز للاختراع ومسارات للتنقل والاتصال بين الجماعات البشرية.

إن انخفاض مستوى سطح البحر يفسّر غالباً على أساس قيام جسور برية ساعدت صيادي الحيوانات الكبيرة على استعمار قارات جديدة، بدلاً من دورها الجغرافي القديم وأثرها على البيئات الساحلية، ووضوح المواقع الأثرية الساحلية (انظر Gamble 1993, klein 1989).

وتعد استراليا الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة، فعلى الرغم من وجود دلالات مبكرة على خبرة الجماعات البشرية البحرية، وتخطيط الرحلات البحرية قبل حوالي ٥٠,٠٠٠ ألف سنة مضت، إلا أنه تم تجاوزها على أساس أنها قارة الصيادين وجامعي الغذاء، وأن الأحداث الرئيسية

للتاريخ الحضاري البشري قد غابت عنها (انظر Lourandos 1997).

٢- سلبية المصادر الإثنوغرافية

لقد أساءت كتابات الرحالة والإثنوغرافيين الأوروبيين إلى سمعة الصيادين وجامعي الغذاء، الذين يقطنون المناطق الساحلية. فوصف تشارلز دارون (charles darwin 1839, 235-6) لهنود منطقة تييرديل فوجو (Tierra del Fuego) ليس استثناءً، بل كان ذا تأثير سلبي، يقول:

«إن هؤلاء يمثلون أسوأ وأبشع المخلوقات التي رأيتها في أي مكان.. إن رؤية هؤلاء الرجال تجعلني لا أصدق أنهم مخلوقات مثلنا، ويعيشون في العالم نفسه الذي نعيش فيه.. إن مكان إقامتهم لا يتجاوز الأحجار، التي يتكون منها الشاطىء، وفي بحثهم عن الغذاء فإنهم يضطرون للتنقل من بقعة لأخرى، ولوعورة الشاطىء فإنه لا يمكنهم التنقل إلا باستخدام قواربهم التعيسة.. إلى أي حد يمكن للقوى العقلية لدى الإنسان ألا يستفاد منها! ما الذي بقي للخيال ليتصوره، وللمنطق ليقارنه، وللحكم ليقرره؟ إن كسر صدفة بحرية بواسطة قطعة من الحجر لا تتطلب ذلك القدر من الذكاء».

إن لهجة بهذا السوء تتكرر أيضاً في الكتابات المبكرة للمستكشفين الهولنديين عن جماعات البشمن على ساحل الكيب (Cape) بجنوب أفريقيا، مثل كتابات فان رايبيك (Van Riebeek) (Tooke 1908). أو ما كُتب عن الاستراليين الأصليين (Dampier 1697).

وكرحالة يعبرون البحارة، لم يكن لدى هؤلاء المستكشفين الأوربيين معياراً متوسطاً للحضارة، كما هو الحال للرحالة على اليابسة، لتُعدهم يمكن أن يجدوه على اليابسة. إن اكتشاف السكان الأصليين «البدائيين» في أصقاع بعيدة بعد أسابيع أو أشهر من ركوب البحر، لا بد أنه كان مفزعاً بقدر اكتشاف كائنات حية على كوكب بعيد من قبل مستكشف فضائي. لقد كان الصيادون وجامعو الغذاء الذين يقيمون على السواحل أول من قابلهم المستكشفون الأوربيون، مما جعل السكان الأصليين عُرضة للمفاهيم الأوربية الخاطئة.

وقد تغلغلت هذه الأفكار المغلوطة إلى عمق عصور ما قبل التأريخ في أوروبا. واستخدم السير جون لوبوك (lubbock) هنود منطقة تيير ديل فوجو للتمثيل على طبيعة سكان أكوام الأصداف بموقع «ارتبول»، ورأى وصف داروين للسكان الأصليين «وصفاً جيداً جداً» لنمط العيش الذي يعتمد الأصداف البحرية غذاءً أساسياً (Lubbock 1865, 189). إن تعليقات جوردون تشيلد في الإصدار الأول لكتابه «نهاية الحضارة الأوروبية» (Dawn of European Civliation) تحمل شبهاً كبيراً لتلك التعليقات، التي أصدرها داروين أيام شبابه قبل ١٠٠ عام.

وفي إشارة إلى أكوام أصداف العصر الحجري الوسيط في كهوف أستورياس (Asturias) الساحلية بشمال اسبانيا، فقد وصفها تشيلد على النحو التالي: «لقد كانت الحضارة الأستورية نتاج نشاطات أناس حقيرين من جامعي الغذاء الذين عاشوا في كهوف ساحلية واقتاتوا على الأصداف البحرية.. إن هذه الشعوب التي تمثل بقايا الحضارة الماجدلينية لم يكن لديها ما يميّزها، لما كانت تعانيه من فقر مدقع» (Childe 1925, 17) وقد لقي هذا النوع من الوصف الوضيع دعماً إضافياً في البيئة الأوروبية، من خلال الرغبة في إبراز التباين بين عصر حجري وسيط متخلف وعصر حجري حديث متقدم يحوي العناصر الأساسية للزراعة والحضارة من الشرق الأدنى، والتي عُدّت حجر الأساس لقيام عالمنا المعاصر، ما أوجد صدعاً بين دراسات العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الحديث استمر إلى يومنا هذا (zvelebil 1996). وحتى جراهام كلارك (Clark) الذي يُعد من أوائل الطلاب المُبرزين في دراسات العصر الحجري الوسيط، لم يجد حديثاً أفضل من القول بأن «الغذاء الذي تُعد الأصداف عنصره الأساسي يرتبط عادة بحضارة متدنية المستوى، وهو مقترح تثبت صحته عند رؤية المكتسبات الحضارية لشعوب البحر الأسود (Caspian) في وادي تاجوس، أو الشعوب الثاردونيسيين (Tardenoisians) الذين يعيشون في الجزر قبالة منطقة موربيهان (Morbihan)، أو الشعوب الأوبانيين في غرب اسكتلندا، أو شعوب ارتبول

على سواحل ليتورينا الدنماركية» (Clark 1952, 63).

استغرق الأمر حتى الجزء الأخير من القرن العشرين ليبدأ تأثير الأوصاف المختلفة لهنود الساحل الشمالي الغربي لأمريكا الشمالية في تفسير البقايا الأثرية الساحلية للعصر الحجري الوسيط واعتبارها أمثلة لجماعات الصيادين وجامعي الغذاء «المركبة» (Complex)، والذين يملكون خصائص اقتصادية ومعيشية كان يعتقد فيما مضى ارتباطها الحصري بالمجتمعات الزراعية (Renauf 1984; Rowley - Conway 1983). وإضافة لذلك، فمن الثابت أن أفضل الأعمال الموثقة لجماعات الصيادين وجامعي الغذاء هي في المناطق الساحلية، وكذلك بعض المواقع الأثرية المهمة التي تقع في نصف الكرة الأرضية الجنوبي أو في المناطق المرتفعة في نصف الكرة الأرضية الشمالي، وهي مناطق تُعد عموماً هامشية لمسارات تقدم الجماعات البشرية. إن هذا ليس مستغرباً، فالإنتاج الحيوي البحري، على عكس الإنتاج الحيوي البري، يزداد مع ازدياد الارتفاع. كما أن أفضل السواحل البحرية إنتاجاً للغذاء في العالم توجد على ارتفاعات عالية في نصفي الكرة الأرضية الشمالي والجنوبي.

وعلى ذلك، فإن هامشية المناطق التي تقع على ارتفاعات عالية بالنسبة للزراعة، يعني أن جماعات الصيادين وجامعي الغذاء قد نجوا لفترة طويلة حتى دخلوا في عصرنا الحاضر وأصبحوا هدفاً لمشاهدات الأوروبيين.

لذا، فإن كلا العوامل التاريخية والجغرافية قد تأخرت لتعزيز مفهوم البدائية أو الهامشية المرتبطة بجماعات الصيادين وجامعي الغذاء في المناطق الساحلية.

إسهامات الباحثين الهواة

٣- إسهام المهتمين من غير الآثاريين

ختاماً، ينبغي لنا تقديم التقدير اللازم للتأثيرات، الإيجابية والسلبية لمن كان لهم السبق في إبراز أهمية السواحل عبر التاريخ البشري، وهي مجموعة تميزت بخلوها من الآثاريين حتى نهاية القرن العشرين. ومن أوائل هؤلاء لا بد أن يكون لويس هنري مورجان (Morgan)، الذي تُعد من أعماله الرائعة: «المجتمع القديم» (Ancient History)، أو «أبحاث على خطى التقدم الإنساني من الوحشية وعبر البربرية إلى الحضارة» (Researches on the lines of Human progress from Savagery through Barbarism to Civilization).

وقد عبّر عما يمكن أن تُعدّه من أبرز النبوءات الصائبة حول أهمية المصادر المائية والبحرية، والتي استغرقت الآثاريين ١٠٠ سنة ليلحقوا به:

«يتوزع السمك في كافة أنحاء العالم، ومتوافر بكميات كافية، وهو نوع الغذاء الوحيد الذي يمكن الحصول عليه طوال الوقت.. وبسبب هذا النوع من الطعام أصبح الجنس البشري مستقلاً عن البيئة والمكان، وباتخاذ سواحل البحار والبحيرات ومسارات الأنهار، بينما هم في حالتهم الوحشية، تمكنوا من التنقل إلى غالبية أصقاع الأرض.. والتغذي على الفواكه والموارد الغذائية المتوافرة، فإن نقلهم من بيئتهم الطبيعية سيكون مستحيلاً» (morgan 1878, 21).

وقد تناول هذا الموضوع الجغرافي الأمريكي كارل ساور (Sauer) في بحث له عام ١٩٦٢م وعنوانه: «السواحل البحرية - موطن الإنسان البدائي»، وقد كان لبحث السير أليستر هاردي المثير المنشور عام ١٩٦٠م «هل كان الإنسان في الماضي أكثر ارتباطاً بالبحر»، دور فاعل في ظهوره.

ومن الدراسات التي تناولت الموضوع دراسة إيلين مورجان «القرد البحري» عام ١٩٨٢م، وهو نسخة أنثوية من فرضية هاردي، وكذلك دراسة ستيفن أوبنهيمر سنة ١٩٩٨ «جنة عدن في الشرق: القارات الغارقة في جنوب شرق آسيا»، ودراسة ريتشارد ردجلي عام ١٩٩٨م «حضارات العصر الحجري المفقودة»، ودراسة جراهام هانكوك عام ٢٠٠٢م «العالم السفلي: الأصول المجهولة للحضارات».

إن هؤلاء المؤلفين لا يمكنهم إدعاء التميّز في مجال الآثار، ومعالجاتهم لهذا الموضوع يغلب عليها، بصراحة، الطابع الصحفي، وهو، بلا شك، ما عزز نزعة الريبة والشك لدى الآثاريين والأنثربولوجيين. إن هذه الأعمال المنشورة تُمثل

شهادة لمدى جاذبية كل ما يخص «الحضارات المفقودة»، وكذلك الفراغ الأكاديمي الذي نتج من زهد الآثاريين في هذا الموضوع. وحتى فرضية ساندر بودلر (Bowdler) عام ١٩٧٧م حول الاستعمار الساحلي لأستراليا، لقيت اعترافاً محدوداً على أيدي النقاد، وهو أمر مستغرب بالنسبة إلى قارة لا بد أنها استُعمرت في أول الأمر من خلال رحلات بحرية، وقد وجدت دلالات صيد الأسماك وجمع الأصداف قبل ٣٣,٠٠٠ ألف سنة في كهف ماقينكبكم (gosden & Robertson 1991).

ما أهمية شواطىء عصور ما قبل التأريخ المبكرة؟

إنني مقتنع، بدرجة كبيرة، أن الصورة التقليدية لعصور ما قبل التأريخ في العالم ينبغي أن تقلب رأساً على عقب، وأنه ينبغي أن تُعد الشواطىء الساحلية المكان الأول الذي تأقلمت عليه الجماعات البشرية، لما لها من دور غير ملموس في التحولات الأساسية للجماعات البشرية. إن هذه ليست دعوة للعودة إلى فرضية «القرد المائي» (aquatic ape) التي تركز على التأقلم التشريحي والفسيولوجي إلى وجود شبه مائي، وهي فرضية لا تزال مشوبة بالجدل. كما أنها ليست دعوة لتهميش دور النبات والحيوان على اليابسة أو أن نتخيل فترات وجود الإنسان أو أشباهه وهم لا يعيشون إلّا على المصادر الغذائية البحرية.

إن الهدف الأساس يتمثل في تسليط الضوء على نقطة بسيطة حول جاذبية المناطق الساحلية، والتي تنطبق بدرجة كبيرة على الشواطىء البحرية، بل ويمكن أن تشمل بصورة عامة سواحل البحيرات وجوانب الأنهار الكبيرة. إن هذه الأنواع المختلفة من البيئات بطبيعتها تجذب الاستيطان البشري، كما هو الحال دوماً، كونها تمتلك المقومات التالية:

١- تنوع المصادر الغذائية في منطقة محدودة، بما في ذلك المصادر الغذائية البحرية، والتي يمكن في أفضل الأحوال أن تتوافر بكميات كبيرة.

٢- أحوال مناخية أكثر ثباتاً.

٣- ارتفاع مستوى سطح البحر ووفرة جيدة للماء.

٤- أحوال خصبة للحياة النباتية والحيوانية على اليابسة.

٥- توافر المصادر الغذائية البحرية، والتي تشمل الغذاء الذي يمكن الحصول عليه بواسطة الجمع أو الصيد، بحد أدنى من الأدوات المتخصصة أو حتى من دونها، بما في ذلك الأصداف البحرية (molluscs) التي تظهر بين حركتي تقدم وتقهقر الأمواج، والأسماك التي تصاد باستخدام الأيدي أو تمسك بواسطة مصايد الأسماك الطبيعية، وكذلك جيف الحيوانات والطيور البحرية التي يتم جمعها.

٦- وجود مواد تكون مكشوفة علي امتداد السواحل مثل الأحجار المستديرة لصناعة الأدوات الحجرية أو أية مواد طبيعية أخرى.

٧- وجود تجاويف أو مغارات طبيعية توفر فرص تحاشي المنافسة مع كائنات أخرى تعيش على الصيد والجمع، كالحيوانات آكلة اللحم أو النبات، أو لتحاشي الموت.

٨- مسارات توفر الاتصال وحركة السكان، خاصة بتوفر مراكب بحرية بسيطة التجهيز. إن من الواضح أن بعض هذه الفوائد، مثل تحسن أحوال المناخ المحلي وتوافر الماء، تنطبق أيضاً على بيئة اليابسة في المناطق الساحلية، أو على ضفاف الأنهار والبحيرات، كما هو الحال في البيئات البحرية، التي يمكن أن يكون لها دور مهم في إقتصاديات الجماعات البشرية في اليابسة، كما هو الحال في البحر.

إن هذا، بالطبع، سبباً إضافياً لوضع اعتبار جاد لدراسة المناطق الساحلية المغمورة بالمياه، والتي ربما تمثل بعض أهم مناطق الجذب للصيد والجمع على اليابسة في فترة العصر الحجري القديم.

إنني في هذا البحث أود التركيز على فرص استغلال الموارد البحرية والمائية. وتعد دراسة أرلاندسون من أقوى الدراسات التي تدعم وجهة النظر هذه (2001، أنظر Bailey & Milner 2001) والذي لخص الأدلة لدور المصادر

البحرية في كافة فترات تطور المجتمعات البشرية، بما في ذلك الفترات المبكرة لظهور الإنسان في منطقة الصدع الأفريقي. وهنا سأركز على قضيتين فقط، هما:

١- الانتشار والهجرات البشرية

إن أثر السواحل البحرية ومصادرها الغذائية في دعم انتشار الجماعات البشرية المبكرة «خارج أفريقيا» من منظور أصل بشري في منطقة الصدع الإفريقي، أشير إليه فيما يخص تعليقات لويس هنري مورجان.

فقد أظهرت اكتشافات جديدة في السنوات القليلة الماضية، وكذلك إعادة تفسير بعض المكتشفات السابقة، دلائل وفيرة، ولكن متفرقة، تبين استخدام الجماعات البشرية للأصداف البحرية، ومصادر بحرية أخرى، في عدد من الطبقات الأثرية التي تؤرخ إلى مستويات بحر مرتفعة ترتبط بفترة ما بين العصرين الجليدين بحدود ١٢٥,٠٠٠ ألف سنة مضت، أو بداية العصر الجليدي الأخير في وقت لاحق. ومما يجدر ذكره الطبقات الأثرية العميقة الموجودة في مستويات كهفية طويلة، كما في موقع (حوافتيح) بليبيا (McBurnery)، وكهف كلاسيس ريفر ماوث (Deacon & Shuurman 1992)، وكهف بلومبوس (Henshilwood et al 2001) بجنوب أفريقيا. وينبغي أن يضاف لهذه المواقع موقع عبدور (Abdur) المكتشف حديثاً باريتريا (walters et al 2000) حيث يعتقد بارتباط فؤوس حجرية بأصداف بحرية وعظام حيوانية على مصطبة مرجانية مرتفعة بالبحر الأحمر أُرخت بدقة في حدود ١٢٥,٠٠٠ ألف سنة (شكل ١,١). إن تشابه هذه التواريخ يوصلنا إلى فكرة أن استهلاك الموارد الغذائية البحرية يُعد اختراعاً لسلالة الإنسان الحديث من حيث البنية الجسدية (Anatomically Modern Humans)، ما أسهم في انتشارهم خارج أفريقيا.

إن هذه الفكرة قيمة جداً، ومع تجاوز النقاش حول ما إذا كان أصل سلالة الإنسان الحديث (AMH) موجودة أصلاً في أفريقيا، أو في عدة مناطق أخرى، فإن إشكاليتها الأساسية تكمن في الاعتقاد بأن أولى الدلائل الحسية لجمع الأصداف البحرية هي أقدم الأدلة فعلياً. إنه لا يوجد سبب للقبول بهذا الاحتمال بقدر ما كان عليه الحال للاحتمال الرائج سابقاً بأن أول ظهور لأكوام القواقع في منتصف ما بعد الفترة الجليدية (mid - postglacial) يمثل أقدم وجود لها. إن هناك العديد من مواقع العصر الحجري القديم الأسفل التي عثر عليها في مواقع ساحلية، والتي تكون عادة قد تعرضت للتعرية في السواحل الشاطئية أو المصاطب النهرية المرتفعة في أفريقيا وأوروبا، حسبما أشار إليه باور (Saver 1962) قبل زمن طويل.

إن البقايا الجينية الحيوية التي بقيت حتى وقتنا الحاضر تعد نادرة، مع استثناء موقع تيرا أماتا (De lumley 1969) حيث عثر فيه على أصداف بحرية يعتقد ارتباطها بأدوات من العصر الحجري القديم الأسفل. إن الآمال المعقودة على حفظ المواد العضوية في مواقع أثرية أغلبها في مناطق سهلية، وكذلك القرب الجغرافي المتفاوت لأقرب شاطىء بحري معاصر، يُعدان عنصران مهمان في عدم الإجابة على السؤال المتعلق بنوع المكونات البحرية المرتبطة باستيطان هذه المواقع الأثرية المبكرة. ومن المؤكد أن المصاطب البحرية العالية والمبكرة تكونت بفعل الاتساع التدريجي لخندق البحر الأحمر، والمرتبطة بأدوات العصر الحجري القديم، ستكون موجودة على امتداد السواحل العربية للبحر الأحمر (Zarins etal 1981)، ما يتيح فرصة لاختبار تفسيرات الأدلة الأثرية بموقع عبدور في الماضي.

ومن الأمور المؤكدة، على كل حال، أن أي انتشار بشري خارج قارة أفريقيا يتطلب الاتصال بالسواحل البحرية، وعبور المسطحات المائية بدرجات متفاوتة، مع استثناء ممر ضيق عبر شبه جزيرة سيناء. وحتى فيما يخص ممر سيناء، على أية حال، فإنه يحتضن سواحل البحر المتوسط إضافة إلى الحاجة لتجاوز دلتا النيل. إن احتمالات العبور البحري المبكر والاتصال عبر الأجزاء الضيقة للبحر المتوسط ومضيق باب المندب في الجزء الجنوبي من البحر الأحمر، محل دراسات جادة (أنظر Flemming et al 2003, Stringer et al 2000, Stringer 2000).

وإن اعتبارات مماثلة تُطبق فيما يخص الوصول

للأمريكتين خلال عصر البلايستوسين حيث مفهوم النظرة التقليدية لهجرات بشرية عبر جسر البيرنج البري (Bering)، وعبر ما يُسمى ممر خال من الجليد في منطقة أمريكا الشمالية الجليدية، يجري إعادة النظر فيها لصالح مسار ساحلي (Erlandson 2000). إن القضية المرتبطة بطبيعة وقدم المعابر البحرية في جنوب شرق آسيا وعبر خط والاس (Walace Line) إلى استراليا، لا يزال موضوعاً مُدرجاً ومحل نقاش (انظر Bednarick 2000 والتعليقات). إن امتداد الاستيطان البشري إلى الجزر البريطانية، بغض النظر عما إذا كنا نتعامل مع أقدم الأدلة في عصر البلايستوسين الأوسط، أو إعادة الاستيطان لمناطق انقشع عنها الغطاء الجليدي بعد نهاية العصر الجليدي، فربما يمكن الاستفادة من دراسات مماثلة.

٢- ظهور المجتمعات البشرية «المركبة» (Complex)

إن فكرة جماعات الصيادين وجامعي الغذاء «المركبة»، التي ظهرت قبل ٢٠ عاماً ربطت بشكل كبير بالمجتمعات الساحلية، كما هو الحال، في الإطار الأوروبي، لأكوام القواقع التي تعود للعصر الحجري الوسيط في موقع «ارتبولا» الهولندي. والمقصود بالمجتمعات المركبة هنا: وجود استيطان دائم وزيادة سكانية وتخزين للطعام وتطور الطبقية الاجتماعية. ويتمثل المثال الاثنوغرافي التقليدي في هنود الساحل الشمالي الغربي لأمريكا الشمالية (Rowley-Conway 1983). إن الارتباط بين هذه الخصائص والبيئات الساحلية ليس بمستغرب، إذا أخذنا في الاعتبار الإيجابيات التي سبق ذكرها أعلاه، خاصة على السواحل ذات الأعماق البسيطة وخيران (estuaries) الأودية، التي توفر ظروفاً ذات إنتاجية حيوية عالية ووفرة عالية في الغذاء البحري.

وعلى السواحل البحرية وخيران الأودية، التي بها أرضيات طينية مستوية تتوفر بيئات مناسبة لكميات كبيرة من الأصداف ثنائية الفلقة (bivalve)، حيث تتجمع كميات كبيرة من نفايات الأصداف على مدى قرون عدة مكونة أكواماً ضخمة من الأصداف.

إن أكوام الأصداف (oyster) كما في موقع ارتبولا، يبلغ طولها بضع مئات من الأمتار وارتفاعها حوالي خمسة أمتار. ويمكن لأحد هذه الأكوام أن يحوي ما مقداره بلايين الأصداف (mollusc shells). وتعد هذه الأحجام والكميات أرقاماً معتادة، ومثل هذه المواقع تنتشر في أنحاء العالم بكثافة، مع كثافة ملحوظة في الخيران الكبيرة (bays) وحواف الأنهار، بما في ذلك أمثلة معروفة، مثل: أكوام ساحل سان فرانسيسكو، وأكوام حضارة جومون (Jomon) باليابان، والساماباكويز (Sambaquis) البرازيلية، وأكوام أصداف الويبا (Weipa) في شمال استراليا (انظر الأشكال ١.٢، ١,٣). وفي بعض الحالات، يبدو أن الأصداف قد تجمعت نتيجة الاستهلاك المحلي وتكرار الاستيطان في الموقع نفسه على مدى أجيال عديدة، فعلياً تحت أقدام المقيمين، كما هو الحال في التلال الأثرية بمنطقة الشهر الأدنى. وفي حالات أخرى، فإن هذه المواقع استخدمت كأماكن لرمي نفايات الأصداف ضمن عملية تحضير الأصداف واستخراج اللحم من داخلها لاستهلاكها في مستوطنات أخرى. وفي المناطق شبه الاستوائية منخفضة الارتفاع من العالم، فإن شكل الأكوام الصدفية يكون ذا حوافٍ حادة، وله شكل قبابي أو مخروطي، ويمكن أن تكون أبعاده كبيرة جداً، كما في أكوام الأصداف في شمال استراليا أو الساماباكويز في البرازيل، والتي يبلغ طول أعلاها ٢٠م (Gasper 1998). وعلى الرغم من أن تركز الأصداف على هذا النحو ربما يرتبط جزئياً بأثر اختيار مناطق جافة من اليابسة، للتخييم في بيئة تتشبع موسمياً بالمياه، إلّا أنه من المؤكد أن هذه الأكوام شكلت ظواهر جغرافية ضخمة، ومن الممكن أن تكون قد اكتسبت دلالات عقدية أو رمزية. ويشير كل من لوبي وجروبر (Luby & Gruber 1999) إلى وجود العديد من المدافن البشرية في الأكوام الصدفية بكاليفورنيا، ما قد يوحي بأن استهلاك الأصداف البحرية قد يكون جزءاً من شعائر الدفن، وأن تكوين أكوام من الأصداف الفارغة هو عمل متعمد يقصد منه تمييز الموقع كعلامة لموقع دفن الأجداد، والذي يُماثل الأكوام المصطنعة من الرمل والأحجار التي تبنى فوق غرف الدفن من قبل العديد من المجتمعات الزراعية. إن العديد من الأكوام الصدفية في أجزاء متعددة من العالم تحوي أيضاً مدافن بشرية، إضافة إلى دلالات على

نشاطات بشرية محلية. وفي حالة أحد الأكوام البرازيلية، جابوتيكابيرا (٢) (Jabuticabeira II) يبدو أن استخدامه، كان لغرض دفن الميت وما يرتبط بذلك من شعائر، خاصة وأنه لم يُعثر على أية دلالات للحياة اليومية أو النشاطات المعيشية، على الرغم من أعمال التنقيب المكثفة (Gaspar 1998)

إن مثل هذه الظواهر ترتبط، بالطبع، بفكرة وجود مجتمع الصيادين وجامعي الغذاء المركبة. وإن حقيقة أن أكوام الأصداف التي تمثل الدلالة الآثارية للمجتمعات المركبة، والتي لم تظهر نسبياً إلا في وقت متأخر تنسجم تماماً مع السلم التقليدي للتطور، حيث تظهر الأشكال المعقدة للتنظيم الاجتماعي متأخرة، نسبياً في التتابع، إلى جانب تطورات اجتماعية واقتصادية، مثل بواكير الزراعة والتحضر (Urbanism). وبناءً على هذا الرأي، فإنه لا ينبغي، بالطبع، توقع وجود أكوام صدفية مماثلة في فترات زمنية مبكرة من عصر البلايستوسين. وفي حال ما إذا كانت السواحل البحرية، حيث توجد هذه المواقع ربما تكون مغمورة بالماء، فإن مثل هذه الفكرة لا يمكن التحقق منها دون أعمال استكشاف ميدانية تحت الماء. ولو أمكن العثور على أكوام صدفية ساحلية على سواحل مبكرة جداً، فسيكون لذلك أثر ملحوظ على فهمنا التقليدي للمسار العام لفترة ما قبل التأريخ في العالم.

ما احتمال أن مواقع ساحلية من هذا النوع كانت موجودة خلال فترات انخفاض مستوى سطح البحر، وأمكنها تجاوز أثر فيضان الماء؟ إن المهمة الأولى تقتضي التعرف على الفترات والمناطق التي توجد فيها ظروف بيئية مناسبة، وهو أمر قد لا يبدو بالسهولة التي يمكن تصورها. إن عمر بقاء المستويات الطينية (mudflats) في الخيران (estuarine) يكون قصيراً بالمقياس الجيولوجي، وربما يحتاج إلى فترات زمنية تقدر ببضع آلاف السنوات حتى يستقر مستوى سطح البحر، بعد فترة من التغير المتواصل وبناء الرواسب الكافية لوجود بيئة مناسبة لعيش الأصداف. وأما السواحل الصخرية، فهي أقل تأثراً بالتغيرات البيئية الناتجة من تغير مستوى سطح البحر، ولكنها عموماً ليست مناسبة لعيش كمية كبيرة من الأصداف البحرية.

الشكل ١، ٢: منظر جوي لأكوام الأصداف على الجانب الشرقي من نهر هي (Hey) قرب ويبا (Weipa) في شبه جزيرة كيب يورك (cape york) في شمال كوينزلاند، وقد التقطت الصورة في مارس ١٩٩٣م بنهاية موسم الأمطار. يظهر في وسط الصورة مجموعة من أكوام الأصداف وكومتين أحدهما إلى اليسار والأخرى إلى اليمين. هذه الأكوام محجوبة جزئياً بكميات من الأشجار الكبيرة التي تنمو عليها. تنتشر هذه المواقع على أرض مستوية ومغطاة بالشجيرات الصغيرة. والمنطقة المواجهة لهذا المكان تغمرها مياه المد العالي، ويفصلها عن قناة النهر الرئيسية حزام سميك من أشجار المانجروف (تصوير المؤلف).

شكل ١، ٣: صورة مقربة لكومة صدفية على الجانب الشرقي من نهر «هـي» (Hey)، التقطت خلال موسم الجفاف عام ١٩٧٢م (تصوير المؤلف).

وأما إذا كانت أكوام الأصداف كبيرة الحجم قد تكونت خلال استقرار لمستوى سطح البحر في فترة مبكرة، فليس في الإمكان تمييزها بسهولة من الأصداف الطبيعية على المصاطب البحرية خلال المسوحات الساحلية. وعلى كلٍّ، فإن الرواسب الصدفية ذات الحواف الحادة والشكل

القبابي أو شبه المخروطي لأكوام الأصداف في «ويبا» أو «الساماباكويز» بالبرازيل، لها شكل مميز، ولو أمكنها تخطي أثر التغيرات المتواصلة فسيكون لها فرصة لاكتشافها.

الخلاصة:

وفيما يتعلق بعموم المجتمع الآثاري، فإنه من غير الكافي إبراز أن الأجزاء القديمة من اليابسة والمواد الأثرية، التي تعود لفترة ما قبل التأريخ يمكن أن تبقى محفوظة تحت الماء بعد فترات من التغير المتواصل نتيجة ارتفاع مستوى سطح البحر، أو أنه يمكن تحديد موقعها وتنقيبها وتحليلها بالطريقة نفسها، التي تلقاها البقايا الأثرية على اليابسة. إن ما يحتاج الآثاري، المشكك في أهمية دراسة البقايا الأثرية الغارقة، إلى معرفته، يتمثل في مدى الفائدة، إن وجدت، التي تقدمها هذه الاكتشافات لتعميق فهمنا حول فترة ما قبل التأريخ، وكذلك حجم المعلومات الحديثة التي يمكن أن تقدمها لنا مواقع ما قبل التأريخ مما قد لا يتيسر الحصول عليه بسهولة وبكلفة أقل على اليابسة؟ إنني أعتقد بوجود إجابتين واضحتين لهذا السؤال: أولاً، ما لم نستكشف المناطق المغمورة بالمياه، فإن آفاقاً واسعة من فهمنا لفترة ما قبل التأريخ ستتلاشي قطعاً، خاصة التأريخ المبكر للسواحل والموارد الغذائية البحرية، ودورها في دعم توسع ونمو المجتمعات البشرية وتحقيق التغير الاجتماعي والثقافي.

إن الاعتقاد حتى وقت متأخر، بأن المناطق الساحلية ليست ذات أهمية في التاريخ البشري، يبقى اعتقاداً. وإن العبء الأكبر الذي حاول هذا البحث تناوله هو: لم ينبغي تعريض هذا الاعتقاد للنقد الدقيق. إن الإيمان بعدم الحاجة لدراسة السواحل البحرية المبكرة لعدم وجود أدلة مادية، يماثل القول بعدم الحاجة للبحث عن أدلة أثرية جديدة، لأن لدينا الإجابة مُسبقاً!

أما الإجابة الثانية لسؤال المشككين، فلها علاقة بالصعوبات النسبية، والتكلفة وإيجابيات البحث الأثري تحت الماء، مقارنة بالدراسات المماثلة على اليابسة. ويتمثل الاعتقاد الأبسط في أن الأبحاث الأثرية تحت الماء تكون بالضرورة مكلفة، وأقل تأكيداً من مثيلاتها على اليابسة.

وفيما عدا الصعوبات الإضافية حول القدرة على الرؤية أو الحركة تحت الماء، فمن المعروف أن السطح الأصلي لليابسة قد تعرض تحت الماء لتأثيرات أكبر من التعرية أو التخريب أو النقل أو الدفن تحت رواسب لاحقة، على عكس ما هو الحال للأرض اليابسة، فضلاً عن التعرض في بعض المناطق للدمار الإضافي الناتج عن النشاطات البشرية المتمثلة «بحرث» قاع البحر من قبل سفن الصيد، ويضاف لذلك، التكلفة العالية لاستئجار قارب ومعدات الغوص، وكذلك إعداد فرق المختصين الذين يملكون خبرات متعددة، ولكن لأي درجة يختلف الأمر عن الدراسات الأثرية على اليابسة؟ تُمثل العمليات البحثية كبيرة الحجم القاعدة في الدراسات الأثرية فوق مستوى سطح البحر الحالي، شاملاً عمليات تستمر لعدة سنوات وربما عقود، وفرق كبيرة من المختصين، والاستعانة بأجهزة تخصصية ومكلفة مادياً، وأنواع متعددة من وسائل الاستشعار عن بعد لتحسين مستوى الرؤية، بما في ذلك التصوير الجوي، والتصوير الفضائي والحفر خلال الرواسب الرملية والنهرية. إضافة لذلك، فإن معظم سطح الأرض قد تعرض لتخريب شديد بسبب العمليات اللاحقة، مثل النشاطات الزراعية، الحرث، والتأثيرات العامة للتطورات الحديثة، مع عدم إغفال عوامل التعرية والترسبات، سواءً كان مبعثها العوامل الطبيعية أو النشاط البشري. وكما هو الحال على اليابسة، فإن عوامل التعرية تحت الماء هي عملية ذات حدين، قد تجعل المواد مهيئة للاكتشاف، وفي الوقت نفسه، معرضة للنقل لمكان آخر، والحت والتدمير. وبالنسبة لمشاكل التعرية والبكتيريا والتحلل الكيميائي على اليابسة، فإننا بحاجة لإضافة العوامل المدمرة لأجيال من النهب والسرقة والتنقيب. ولا تقصد القول إن العمل تحت الماء سيكون أسهل وأكثر إنتاجية منه على اليابسة، ولكن الهدف هو إبراز أن مقياس الإيجابيات والسلبيات ليس بالسهل دفعه باتجاه واحد فقط.

إن اكتشاف المواقع الأثرية تحت الماء لا يزال محفوفاً بالمخاطر، مقارنة بمثيله على اليابسة، على سبيل المثال بينما يمكن أن يكون مستوى الحفظ تحت الماء أفضل بكثير منه على اليابسة.

وباختصار، ليس هناك أعـذاراً مقنعة لعدم تشجيع ومتابعة البحث الأثري لفترة ما قبل التأريخ تحت الماء. وإن من المبادىء الأساسية للمسوحات الأثرية على اليابسة، والـذي ينطبق بشكل نظري على العديد من الاجتهادات الفكرية، أننا لا نجد، غالباً، أي شيء حتى نعرف ما الذي نحاول العثور عليه. وأننا لا نعرف ما نبحث عنه، أو حتى من أين نبدأ، حتى نجد شيئاً. إن هـذا التناقض، الـذي ربما كان عالمياً، والذي لا يمكن حله إلا من خلال المحاولة والخطأ والتطوير على قدم المساواة لتقنيات المشاهدة، التي تساعدنا في العثور على البقايا والإطار النظري الذي يمكّننا من وضع توقعات وتنبؤات حول طبيعة ومكان ما يتم البحث عنه. والحال على اليابسة كما هو تحت الماء، فإن التقدم يعتمد على التعرف على المشاكل التي تحتاج لبحث يستحق القيام به، بحيث تستهدف مناطق لاستكشاف مواد ذات علاقة بها، وتطوير إستراتيجيات للمسح والاكتشاف. وإن عناصر البحث المختلفة يجري - عادة - تتبعها بشكل منفصل. ولكن كلما أمكن دمجها مع بعضها فإن ذلك سيزيد من عجلة التقدم.

د. عبدالله بن محمد الشارخ: قسم الآثار - كلية السياحة والآثار - جامعة الملك سعود - ص.ب: ٢٦٢٧ الرياض ١٢٣٧٢ المملكة العربية السعودية.

الهوامش:

* نشر أصل البحث باللغة الإنجليزية في (Submarine prehistoric archaeology of the North Sea - Research Report 141, 2004 PP. 3-10)؛ وقد كتب مؤلف البحث هذه الورقة خلال الحصول على منحة بحثية رئيسة من جمعية ليفرهولم (Leverhulme). ويشكر الباحث الجمعية لتمويل هذا البحث الذي قُدمت على أساسه هذه المنحة.

Originally published as: Bailey, G.N. 2004. The wider significance of submerged archaeological sites and their relevance to world prehistory. In N.C. Flemming (ed.) Submarine prehistoric archaeology of the North Sea: Research Priorities and Collaboration with Industry. London: CBA Research Report 141, pp. 3-10. ISBN 1-902771-46-X

المراجع:

Bailey, G N (ed), 1997 Klithi: Palaeolitic settlement and Quaternary landscapes in Northwest Greece, 2 vols. Cambridge: McDonald Institute for Archaeological Research

Bailey, G N, & Craghead, A, 2003 Late Pleistocene and early Holocene coastal palaeoeconomies: a reconsideration of the molluscan evidence from Norrthern Spain, Geoarchaeology: and International Journal, 18(2), 175-204

Bailey, G, & Milner, N J, 2002 Coastal hunters and gatherers and social evolution: marginal or central? Before Farming: the Archaeology of Old World Hunter-Gatherers, 3-4 (1), 1-15. Available: <http//waspjournals.com>

Bednarick, R G, 2003 Seafaring in the Pleistocene, Cambridge Archaeological Journal, 13, 41-66

Bowdler, S, 1977 The coastal colonisation of Australia, in J Allen, J Golson & R Jones (eds) Sunda and Sahul: Prehistoric Studies in Southeast Asia, Melanesia and Australia, London and New York: Acadeemic Press, 205-46

Childe, V G, 1925 The Dawn of European Civilization, London: Kegan Paul

Clark, J G D, 1952 Prehistoric Europe: the economic basis. London: Methuen

Coles, B J, 1998 Doggerland: a speculative survey, Proceedings of the Prehistoric Society, 64, 45-81

Dampier, W, 1697 A New Voyage round the world. London

Darwin, C, 1839 Journal of Researches into the Natural History and Geology of the Countries Visited during the Voyage round the world of HMS "Beagle" under command of Captain Fitz Roy, RN London: John Murray.

de Lumley, H, 1969 A paleolithic camp at Nice, Scientific American, 220 42-50

Deacon, H J, & Shuurman, R, 1992 The origins of modern people: the evidence from Klasies River, in G Brauer & F H Smith (eds) Continuity or Replacement: controversies in Homo sapiens evolution. Rotterdam: Balkema, 121-9

Erlandson, J M, 2000 Anatomically modern humans, maritime voyaging, and the Plestocene colonization of the Americas, in N G Jablonski (ed) The First Americans: The Pleistocene Colonization of the New World. San Francisco University of California Press

Erlandson, J M, 2001 The archaeologgy of aquatic adaptations: paradigms for a new millennium, Journal of Archaeological Reserch, 9, 287-350.

Fischer, A (ed), 1995b Man and Sea in the Mesolithic. Coastal settlement above and below present sea level, Proceedings of the International Symposium, Kalundborg Denmark 1993. Oxford: Oxbow

Flemming, N, Bailey, G, Courtillot, V, King, G, Lambeck, K, Ryerson, F, & Vita-Finzi, C, 2003 Coastal and marine palaeoenvironments and human dispersal points across the Africa-Eurasia boundary, in C A Brebbia & T Gambin (eds) The Maritime and Underwater Heritage. Malta: Wessex Institute of Technology and the University of Malta, 61-74

Galili, E, Weinstein-Evron, M, & Ronen, A, 1988 Holocene sea-level changes based on submerged archaeological sites off the northern Carmel coast in Israel, Quaternary Resech, 29, 36-42

Gamble, C, 1993 Timewalkers: the prehistory of global colonization. Stroud: sutton.

Gaspar, M D, 1998 Considerations of the sambaquis of the Brazilian coast, Antiquity, 72, 592-615

Gosden, C, & Robertson, N, 1991 Models for Matenkupkum: interpreting a late Pleistocene site from southern New Ireland, Papua New Guinea, in J Allen & C Gosden (eds) Report of the Lapita Homeland Project, Occasional Papers in Prehistory 20. Canberra: Department of Prehistory, Research School of Pacific Studies, the Australian National University, 20-45

Henshilwood, C S, Sealy, J S, Yates, R, CruzUribe, K, Goldberg, P, Grine, F E, Klein, R G, Poggenpoel, C A, Neikerk, K van, & Watts, I, 2001 Blombos Cave, Southern Cape, South Africa: preliminary report on the 1992-99 excavations of the Middle Stone Age levels, Journal of Archaeological Science, 28, 421-48

Klein, R G, 1989 The Human Career. Chicago: Chicago University Press

Lourandos, H, 1997 Continent of Hunter Gatherers: new perspectives in Australian prehistory. Cambridge: Cambridge University Press.

Lubbock, Sir John, 1865 Prehistoric Times as illustrated by Ancient Remains and the Manners and Customs of Modern Savages. London: Williams & Norgate

Luby, E M, & Gruber, M F, 1999 The dead must be fed: symbolic meanings of the shellmounds of the San Francisco Bay area, Cambridge Archaeological Journal, 9, 95-108

McBurney, C B M, 1967 The Haua Fteah (Cyrenaica) and the Stone Age of the South-East Mediterranean. London: Cambridge University Press.

Morgan, L H, 1878 Ancient Society, or Researches in the Lines of Human Progress from Savagery through Barbarism to Civilization. New York: Holt

Osborn, A J, 1977 Strandloopers, mermaids, and other fairy tales: ecological determinants of marine resource utilization the Peruvian case, in L R Binford (ed) For Theory Building in Archaeology. New York: Academic Press, 157-205

Renouf, M A P, 1984 Northern hunter-fishers: an archaelogical model, World Archaeology, 16, 18-27

Rowley-Conwy, P, 1983 Sedentary hunters: the Ertebølle example, in G N Bailey (ed) Hunter-Gatherer Economy in Prehistory. Cambridge University Press, 111-26

Sauer, C O, 1962 Seashore: primitive home of man? Proceedinegs of the American Philosophical Society, 106, 41-7

Stringer, C B, Barton, R N E, & Finlayson, J C (eds), 2000 Neanderthals on the Edge: papers from a conference marking the 150th anniversary of the Forbes quarry discovery, Gibraltar. Oxford: Oxbow

Stringer, C, 2000 Coasting out of Africa, Nature, 405, 53-5

Sugihara, S, & Serizawa, C, 1957 Shell Mounds of the Earliest Jomon Culture at Natsushima Kanagawa Pref, Japan, Reports on the Research by the Faculty of Literature, Meiji University, Archaeology 2. Tokyo: Meiji University

Tooke, W H, 1908 Strandloopers and landstroopers, II, African Monthly, 4, 544-53

Walters, R C, Buffler, R T, Bruggemann, J J, Guillaume, M M M, Berhe, S M, Negassi, B, Libsekal, Y, Cheng, H, Edwards, R L, Gosel, R von, Neraudeau, D, & Gagnon, M, 2000 Early human occupation of the Red Sea coast of Eritrea during the Last Interglacial, Nature, 405, 65-9

Zarins J, Al-Jawad Murad, A, & Al-Yish, K S, 1981 The Comprehensive Archaeological Survey Program, a, The second preliminary report on the southwestern province, Atlal, the Journal of Saudi Arabian Archaeology, 5, 9-42

Zvelebil, M, 1996 Farmers our ancestors and the identity of Europe, in P Graves Brown, S Jones & C Gamble (eds) Cultural Identity and Archaeology: the construction of European communities. London: Routledge, 145-66